فتحى غانم

مواد خام لصناعة المستقبل

التفكير فى المستقبل ومحاولة تصوره ، شيء ، والتخمين والتمنى شيء آخر . ولست من هواة التخمين ، ولا أريد أن يتهمنى أحد بالرجم بالغيب ، ولكنى مشغول مثل بقية البشر بالمستقبل ، سواء كان ذلك بالنسبة لمستقبل حياتى الخاصة ، أو مستقبل المجتمع الذى أعيش فيه . ولا أحد يستطيع أن يفلت من المستقبل ، إنه يلاحقنا فى كل لحظة ، وفى الحقيقة أننا لا نكاد نعيش الحاضر ، ففى اللحظة نفسها التى نتبين فيها الحاضر المحيط بنا ، يكون قد تحول إلى ماض وذكرى ، وهكذا يندفع بنا قطار الحياة من الماضى إلى المستقبل مروراً بحاضر يستحيل الإمساك به وتجميد لحظته . فالماضى والمستقبل هما اللذان يحركان الحياة . وهما وقودها ، وهما طرفا الصراع فيها ، وبهما تنمو الحياة وتنضج وتزدهر ، أو تذبل الحياة وتخبو وتندثر . ومن هنا كان التفكير لا التخمين ، والتصور القائم على الدراسة والتحليل ، لا الرجم بالغيب ، ضرورة لا مناص منها لمحاولة تصور المستقبل . . أى مستقبل .

فإذا كنا نريد أن نتصور مستقبل مصر أو مستقبل الأمة العربية بعد ما تحقق من انتصارات فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ المجيدة ، فلابد لنا أن نستعين بأحداث

الماضى لنمتحن بها صدق أحلامنا فى المستقبل . لابد أن نعتمد على خبراتنا السابقة التى اكتسبناها من تجاربنا الماضية ونحن نحاول تقديم صياغة لآمالنا وأهدافنا فى المستقبل . ولا شك أن الحاجة إلى المعلومات الدقيقة الوافية تفرض نفسها . فبغير هذه المعلومات لا يكون هناك أساس صالح يقوم عليه البناء . ولذلك أناشد كل من ساهم فى حرب أكتوبر المجيدة ، على أى مستوى من المسئولية ، كبيراً كان أو صغيراً ، أن يسارع بتسجيل ما لديه من معلومات ، وأن يوجهها إلى الجهات المختصة فى المجالات المختلفة ، وعلى هذه الجهات أن تولى هذه المعلومات العناية القصوى من الدراسة والتحليل ، وإذا لم تستطع فعلى الأقل تحتفظ بما يتجمع لديها من معلومات ، وأن تصونها . فأغلب ظنى أن كل معلومة حول هذه الحرب ستجد من يهتم بها الآن ، أو لعشرات السنوات أو مئاتها القادمة . أجيال من الساسة والعسكريين والمؤرخين والأدباء والشعراء وعلماء الاجتماع والإدارة والاقتصاد وغيرهم وغيرهم ، سوف يجدون فى أحداث هذه الحرب ، وفيما سجله الذين شاركوا فيها من تجارب وانطباعات وخبرات ووجهات نظر ، كنوزاً لا تفنى من المعرفة التى تنير الطريق لتصور أكثر صحة وسلامة لمستقبلهم .

ولنا فى حملة نابليون بونابرت على مصر عبرة . فقد جاء مع جيش بونابرت حشد من العلماء والفنانين سجلوا كل ما رأوه . لم يكتفوا بتسجيل حقائق الاقتصاد المصرى أو المجتمع المصرى ، بل فحصوا كل شىء ، ووصفوه فى كتاب « وصف مصر » ، من الآثار إلى الطيور والنباتات والحيوانات إلى رسم ملابس النساء والرجال ؛ حقًا لم يتركوا شيئاً يخطر ببال إلا سجلوه ، هذا بالإضافة إلى الرصيد الضخم من المذكرات واليوميات والرسائل الذى تركه الضباط والجنود والأطباء والمهندسون وغيرهم ممن شاركوا فى الحملة . ولقد كان هذا الحشد الهائل من المعلومات أساساً هاماً لوضع استراتيجيات وسياسات أوربية لمستقبل مصر ومنطقة الشرق الأوسط ، كما أرادوه هم ، لا كما كنا نريده نحن ، ولتحقيق مصالحهم لا مصالحنا ولتقوية نفوذهم لا نفوذنا ، ومع ذلك استفادت العلوم والفنون فى توظيف هذه المعلومات لخدمة الإنسانية كلها . ولا أنكر أننا استفدنا أيضاً من هذه المعلومات

والدراسات التى قامت بها حملة بونابرت . وإن كانت الفائدة جاءت متأخرة . وبعد أن اكتسب بها من سبقنا إليها قوة وسلطة .

ولقد استشعر الرئيس أنور السادات قائد وبطل حرب أكتوبر المجيدة ، أهمية تسجيل المعلومات العسكرية كافة المتصلة بهذه الحرب ، وأصدر توجيهاته بإعداد كتاب جامع شامل من واقع تجارب وخبرات كل القادة الذين شاركوا فيها .ولعل هذا التوجيه النابع من حس تاريخى مرهف لزعيم سياسى يتعامل مع التاريخ ، أن يكون مفتاحاً لاهتمام كل من شاركوا فى هذه الحرب ، فى مجالات الصناعة والنقل والإدارة والتموين والاقتصاد والإعلام والثقافة وغيرها ليسجلوا بدورهم ما لديهم من معلومات وخبرات . كذلك علينا أن نهتم بما سجله الجنود من يوميات أومذكرات ، وأن نحتفظ برسائلهم من الجبهة إلى أسرهم وأصدقائهم ، ومن مجموع هذه المعلومات ، تتكون المادة الخام اللازمة لصناعة التفكير فى مستقبلنا بعد حرب أكتوبر المجيدة .

غير أن التفكير فى المستقبل . ومحاولة تصوره عملية تلازمنا فى كل لحظة . وكما سبق أن قلت لا نستطيع أن نفلت منها . وهناك قدر من بناء مستقبلنا نستطيع أن نتبنه بوضوح ، حتى قبل أن تتجمع لدينا كل المعلومات التى اكتسبناها من خوض تجربة الحرب .

فأنا لا أرجم بالغيب ، عندما أتصور مستقبل بلادى كمصرى وكعربى ، وقد تخلصت تماماً من كل نفوذ استعمارى يحتل بعض أراضيها عدواناً واغتصاباً فى محاولة عنيدة لئيمة لإخضاعها والسيطرة عليها .

ولا أريد أن أقدم تصورى للمستقبل من خلال مناقشة سياسية ، عن دور الاستعمار القديم والاستعمار الحديث فى عالم اليوم ، والنهاية المحتومة لزوال هذا الدور وانتصار الشعوب ، لأن بى رغبة أن أقدم تصورى للمستقبل ، من خلال مواقف إنسانية واجهتها بنفسى فى الماضى . ولعل الذى يدفعنى إلى ذلك ، هو أن الحديث عن المستقبل يجعلنى على الفور أفكر مثل أى أب فى ولدى الذى لم يبلغ العاشرة بعد . وقد لا يفهم حديث السياسة ، ولكنه بكل تأكيد ينصت باهتمام وشغف عندما أحكى له عن بلدنا من خلال تجارب أومواقف واجهها أبوه أوجده .

ولقد كنت فى التاسعة من عمرى عندما واجهنى بقسوة السؤال نفسه الذى أتدبر الإجابة عنه اليوم . ما هو مستقبل مصر؟

كنت مع أخى الذى يصغرنى بسنتين طفلين يسيران مع والدهما المشغول عنهما بأصدقائه الكبار. كان ذلك فى الثلاثينيات . وكنا نسير على كورنيش الإسكندرية ، عندما وقف الكبار ، وأعطوا البحر ظهورهم ، وجعلوا يحدقون أمامهم فى بناء ضخم مرتفع ممتد يحرسه جنود إنجليز . كان ثكنات الجيش البريطانى فى مصطفى باشا . وكانوا يتحدثون وأنا أشعر بالملل من الوقوف ، حتى فاجأنى صوت أبى وهو ينظر إلىّ وإلى أخى مخاطباً أصحابه :

– كم أتمنى أن أعيش حتى أرى علماً مصرياً فوق هذه الثكنات .

كان حديث أبى عن الحياة والموت مفزعاً . كان زلزالاً يهز بقسوة كل ما بى من طفولة .

واستمر أبى يقول ، وهو ينظر فى عينى :

– لو مت . . فعليكم أنتم أن تحققوا هذه الأمنية . .

وارتجفت ، ولم أفهم تماماً قوله : « لو مت » ، ولكن قلبى كان ينبض بخوف وغضب شديدين ، ولم أنبس بكلمة ، وما كان ينتظر منى أن أقول له شيئاً ، ولا أذكر شيئاً أضيفه إلى هذا المشهد ، الذى ما زال يلاحقنى بانفعالات شتى من الثلاثينيات حتى السبعينيات .

مات أبى ، والعلم البريطانى رمز احتلال الأرض المصرية ما زال فوق سارية فى ثكنات مصطفى باشا فى قلب رمل الإسكندرية ، وما زال فوق سارية فى ثكنات قصر النيل فى قلب القاهرة ، وفى قلعة صلاح الدين يطلّ على القاهرة .

وأينما رأيت علم الاحتلال ، كان السؤال يواجهنى بكل قسوته . ما مستقبل مصر ؟ وكانت الإجابة الوحيدة الممكنة ، والتى لا إجابة غيرها ، هى أن علم الاحتلال سوف يسقط وعلم مصر سوف يرتفع .

عندما قامت الحرب العالمية الثانية – صار فوق أرض مصر علمان للاحتلال : أحدهما بريطانى ، والثانى نازى فاشستى . وذات يوم انطلق جندى من جنود الاحتلال

البريطانى بعربة ضخمة تحمل فوقها طائرة محطمة ، فى شارع القصر العينى المزدحم ، وضرب بسيارته أخى فمات على الفور.

إننا نموت ، وعلم الاحتلال أصبح علمين . والسؤال عن مستقبل مصر . وبقاء علم الاحتلال فوق أرضها ، سؤال عن الحياة أو الموت . ليس بالنسبة لى وحدى ، ولكن بالنسبة لنا جميعاً ، كل منا له أب أو أخ أو جد أو ابن يدعوه إلى التفكير فى مستقبل مصر ، ويفرض عليه بحكم التجارب والذكريات والخبرات المستفادة ، أن يكون التصور الوحيد والممكن هو حتمية تحرير كل شبر من الأرض .

ومع معارك المواجهة مع الاحتلال تراكمت الخبرات ، وتكشفت مواقع قوة الاحتلال ونفوذه ، كما تجمعت قوى المقاومة والتحرير ، وعلمتنا التجارب أن سقوط أعلام الاحتلال هو هدف يتطلب تحقيقه أن نحاصر أعوان الاستعمار والمتحالفين معه والمستفيدين من وجوده . . وأن نضربهم قبل أن نضربه . عرفنا ذلك بالتجربة ، وقبل أن نقرأ عن الاستراتيجية الحديثة التى تؤكد أن الاقتراب غير المباشر من الهدف ، هو أسرع الطرق للوصول إليه . وهكذا كانت مظاهراتنا كطلبة ضد الملك وأعوانه ، وباشوات الإنجليز وعملائهم . وأصبح تصور المستقبل ، ليس كلاماً إنشائياً مجرداً ، أو قصائد يدبجها الشعراء فى المناسبات ، ولكنه كفاح عملى فى الشـــوارع ، ودماء تسيل ، وسجون ومعتقلات ، وحركات فدائية وإرهابية ، وكل ما تشاء أن تتخيله من تنظيمات ومنشورات وقضايا سياسية ، حتى انتهى كل هذا إلى ولادة صورة للمستقبل فى قيام تنظيم سرى للضباط الأحرار بثورة ٢٣ يوليو.

عندما طرد الملك ، وحوصر أعوان الاستعمار ، تحقّق صدق الاستراتيجية الحديثة فى مناداتها بأسلوب الاقتراب غير المباشر . فانحسر الاحتلال إلى قاعدة القناة ، بعد أن استطاعت المظاهرات والكفاح السياسى الشعبى أن يجلياه من قبل ، ويسقطا أعلامه من فوق ثكنات مصطفى باشا فى الإسكندرية ، وقصر النيل والقلعة والعباسية فى القاهرة .

ولم أفرح فرحة كاملة ، وأنا أقف على كورنيش الإسكندرية ، وقد جعلت ظهرى إلى البحر ، مواجهاً ثكنات مصطفى باشا والعلم المصرى يرفرف على السارية ،

والجنود المصريون يحرسونه ، وصوت أبى ، وذكرى أخى يحيطان بى . لقد كبرت وعرفت أن الاحتلال ليس هو تلك الراية التى سقطت فى الإسكندرية والقاهرة ، وأنه مازال هناك فى القناة ، وأن المعركة مازالت قائمة ، ولكن المستقبل الذى نريده سوف نحققه .

وعندما تم جلاء الإنجليز فى يونيو ١٩٥٦ ، كادت الفرحة تتم ، ولكن أشهراً قليلة علمتنا أنها فرحة ساذجة . فالإنجليز الذين ذهبوا فى يونيو عادوا فى أكتوبر ومعهم الفرنسيون وثالثتهم إسرائيل . ولم ينسحبوا إلا تحت ظروف سياسية ضاغطة ، ولكنهم تركوا فى نفوسنا يقيناً بأن الصراع مستمر ، وأن السذّج وحدهم هم الذين يتوهمون أن النصر الكامل قد تم ، وأن الأخطار قد زالت إلى الأبد .

ولابد أن أخطاء جسيمة هى التى أدت إلى هزيمة ١٩٦٧ ، التى عاد بسببها الاحتلال إلى مصر فى أرض سيناء ، وإلى الأرض العربية فى الضفة الغربية والجولان فضلا عما كان قد لحق بأرض فلسطين .

ولا شك أننا فى حاجة إلى معلومات كاملة عن أسباب هذه الهزيمة ، فبغير هذه المعلومات لن يستقيم أى تصور للقضاء على كل أسباب تكرارها . ومن حسن الحظ أن انتصار أكتوبر ١٩٧٣ هو مؤشر حاسم بأن قواتنا المسلحة استطاعت أن تعى درس النكسة ، وأن تتغلب على أسبابها . ولعل هذا الانتصار يمهد لنشر المعلومات والدراسات والتحليلات الكاملة حول هزيمة ١٩٦٧ . فهى أيضاً جزء هام من المادة الخام التى يجب توافرها لوضع تصور صحيح وسليم لمستقبلنا .

وإذا كانت الأمة قد لزمت الصمت وتمسكت بالصبر ثقة منها فى القائد الذى قادها إلى انتصار أكتوبر ، والذى طالبها بالصمت والصبر ، فلا شك أنه – مع كل دعم لهذا الانتصار – سوف تزداد الحاجة عند الأمة إلى الاطلاع على أسباب الهزيمة التى سبقته ، لا لإشباع الفضول ، أو لمجرد نبش الذكريات ، ولكن لأن هذا الاطلاع سوف يحرك بين أفراد الأمة كل دوافع التفكير الجاد والعمل الدءوب على تجنيب بلادنا فى المستقبل أسباب هزيمة أخرى .

ومع ذلك ، وبرغم هزيمة ١٩٦٧ ، كانت الصورة فى مجملها أن الاستعمار

ينحسر . كان يحتل كل شبر من أرض مصر . ثم انحسر وتحددت مواقعه غربى قناة السويس ، ثم انزاح إلى شرق قناة السويس . فهكذا تقول نظرة التاريخ الشاملة التى لا تنظر إلى الأحداث منفصلة بعضها عن بعض ، بل تضمها فى تيار واحد ، قد يتعرج ، وقد يتلوّى ، ولكنه يسير فى اتجاه رئيسى ، وهو بالنسبة لنا اتجاه التحرير والاستقلال الكامل . .

وهذه النظرة الشاملة لأحداث التاريخ أكثر صدقاً فى رؤية ما يجرى ، دون أن تضللنا أحداث معينة ، فنفرقنا فى تشاؤم لا مسوغ له ، يعطل حركتنا ، ويوهن من قوانا المعنوية . ولقد كان « لورد لويد » وهو يكتب مذكراته عن مصر التى حكمها كمندوب سام فى الثلاثينيات يقول : إن تاريخ احتلال إنجلترا لمصر ، إذا نظرنا إليه نظرة تاريخية صحيحة ، فسنجد أنه بالنسبة لهذا الشعب المصرى صاحب التاريخ الطويل العريق الذى امتد فى حضارته إلى آلاف السنين ، لا يعدو أن يكون هامشاً يكتبه المؤرخ فى سطرين فى كتاب ضخم عريض .

فهكذا كان المحتل يشعر فى قرارة نفسه ، أنه يواجه شعباً أقوى منه برغم أنه يحكمه بالفعل ، ولكنه حكم مؤقت ، ميئوس من استمراره .

والعدو الإسرائيلى لا يفكر على هذا النحو . إن تعصبه الأعمى يدفعه إلى تبنى منطق شاذ . ولقد كان يتصور لنا مستقبلا غريباً . كان يتوهم أننا سنقبل الهزيمة ، وسنتلقى الضربات فى حرب بعد أخرى ، دون أن نكتسب أى نوع من الخبرة فى مواجهته ، ودون أن نبتكر أساليبنا الخاصة فى رد عدوانه ، على حين أن تاريخ الإنسان منذ أقدم العصور حتى يومنا هذا ، هو تاريخ تراكم الخبرات الإنسانية وتطورها فى مواجهة التحديات المختلفة . ومن أهمها تحديات العدوان والاغتصاب .

وقد كان الإنسان يواجه فى عصر ما حيوانات شرسة هائلة ، مثل الديناصور ، واستطاع الإنسان أن يحفظ إنسانيته على الأرض ، ولم يستطع الديناصور الهائل أن يبقى ، فأبيد من على سطح الأرض . وذلك لأن الإنسان قادر على اكتساب الخبرة يوماً بعد يوم . وقادر على تجديد أساليب الحياة حسب تطور ظروف البيئة ، والإنتاج ، على حين ظل الديناصور وحشاً هائجاً بلا عقل .

ولقد كانت النظرة المتعصبة ، الضيقة الأفق ، التى شجعت إسرائيل على اغتصاب الأرض العربية ، هى السبب فى الصدمة التى لحقت بإسرائيل فى حرب أكتوبر . رفض الإسرائيليون أن يصدقوا أننا قادرون على صياغة مستقبلنا ، وكانت أحزابهم تخوض الانتخابات بعد حرب ٦٧ تحت شعار : « ولا شبر واحد للعرب » . مقابل شعارنا بألاّ نفرط فى شبر واحد من الأرض العربية . وكان طريق السلام عندهم : هو إنشاء دولة إسرائيل الكبرى ، الممتدة من النيل إلى الفرات ، وأن كل أرض احتلتها القوات الإسرائيلية أصبحت أرضاً إسرائيلية ، بما فيها الضفة الشرقية لقناة السويس . وكانوا يتحدثون عن تحقيق مستقبلهم الكبير بأسلوب « سياسة الأجيال والمراحل » التى شرحها موشى ديان فى أكثر من مناسبة ، وهو القائل « كل جيل يخوض حربه الخاصة » وبذلك يحقق أهداف مرحلته التاريخية .

وكان يعتقد أن جيله حقق من خريطة إسرائيل الكبرى من النيل إلى الفرات ، الاستيلاء على سيناء حتى قناة السويس ، فى اتجاه النيل ، والاستيلاء على الجولان والضفة الغربية فى اتجاه الفرات . وكانوا يعتقدون أن أمريكا تضمن لهم تحقيق هذا الحلم . وكانوا فى الوقت نفسه يقدمون ضمانات لأمريكا أهمها .

- ألاّ تتورط أمريكا مع الاتحاد السوفييتى فى مواجهة .
- المحافظة على بقاء الحرب بين إسرائيل والعرب فى حدودها المحلية . وأن هذا الإطار المحلى يضمن انتصار إسرائيل على العرب فى أية حرب تنشب بينهما .

وفى مؤتمر لحزب مزراحى الذى يضم يهود أمريكا . وكان بمناسبة مرور ستين عاماً على إنشاء الحزب . صرح ديّان قائلا :

– « ليس هذا هو الوقت المناسب لإعلان قرار ضم الأراضى العربية المحتلة رسمياً من الكنيست . إن خلق الحقائق أهم من إصدار قرارات شكلية . والاستيطان اليهودى فى هذه المناطق التى نحتفظ بها ونحكمها بالفعل أهم من إصدار بيانات رسمية عن ضم الأراضى » .

هكذا كانوا يتصورون المستقبل بعد حرب ١٩٦٧ .

وكانت صحف إسرائيل تفيض بالتعصب الاعمى ، فكنت تقرأ فيها مثل هذه

العبارات التى ننقلها كنموذج من صحيفة هايوم فى ٢٤ أبريل ١٩٦٩ :

« إن قلبنا يمتلئ بالفخر ونحن نلتفت وراءنا إلى الطريق الذى سلكناه ، فنجد أننا نزداد أمناً مع انتصاراتنا العسكرية ، وإن الحرب هى التى تجعلنا هادئين آمنين ولابد أن ننزل ضربة قاضية بمصر ، وأن نجعل من الحرب طريقنا إلى السلام » .

فهل هناك غطرسة أو غرور أكثر من هذا بشاعة ؟ ! أليس هذا هو الديناصور الإسرائيلى الجبار الذى لابد أن تقضى عليه حماقته فى مواجهة الرؤية الإنسانية السليمة ؟ !

لقد كان هذا الغرور الإسرائيلى ، يعميهم عن رؤية المستقبل ، وتصوره تصوراً سليماً . لقد صرح أحد كبار العسكريين لصحيفة ها آرتس الإسرائيلية بأن إسرائيل سوف تنتصر فى أية حرب تخوضها ، ولن تحتاج إلى تدخل أمريكا المباشر إلا إذا حدث أمران :

أولهما : أن يستخدم العرب الأسلحة النووية ! !

ثانيهما : أن يرسل الاتحاد السوفييتى قوات تقليدية برية ضخمة للهجوم على إسرائيل ! !

لقد تعمدت أن أطيل فى نقل هذه التصورات الإسرائيلية ، لأنها تكشف لنا الآن مدى الخطأ الذى يقع فيه من يضع تصورات للمستقبل على غير أساس علمى سليم ، معتمداً على التعصب ، أو التخمين أو الرجم بالغيب .

فها نحن أولاء قد خضنا الحرب ، وحققنا فيها انتصاراً تحدث به العالم ، دون أن نلجأ إلى الأسلحة النووية ، ودون أن يرسل الاتحاد السوفييتى قوات تقليدية برية ضخمة ، ولا غير برية ، بل إن كل خبرائه كانوا قد غادروا مصر قبل الحرب .

واستطاع القائد المصرى ، والجندى المصرى ، أن يحققا إرادتهما وأن يعبرا ، وأن يضطرا إسرائيل إلى الاعتراف بمبدأ الانسحاب ، بل تنفيذه جزئيًّا ، استعداداً لتنفيذه شاملا كاملا ، بعد كل هذا الذى قالوه عن إسرائيل الكبرى من النيل إلى الفرات .

ما الذى نتصوره بعد ذلك عن المستقبل .

إن المستقبل ليس كلاماً نظرياً يقال . . إنه مراجعة لتجارب الماضي ودراسة عاقلة حكيمة لما تراكم من خبرات ، تؤكد لنا أن الصراع طويل . وأن الهزائم نكسات عابرة ، نستطيع أن نعبرها بإيماننا بقضية التحرير ، التي هي بالنسبة لنا قضية حياة أو موت . وانتصارنا فيها محتم . وعلينا أن نعجل بهذا الانتصار ، فنحاصر كل القوى التي تعطله ، والطريق طويل وشاق ، ولكن حرية الشعوب وخلاصها من الاستعمار والاستغلال أمر حتمي ، بل تكاد تراه من خلال نظرة فاحصة شاملة للتاريخ .